مفهوم العيد في التصور الإسلامي

أ.د / أمان محمد قحيف (*)

لقد اهتم الإسلام بالعيد وأراد لأتباعه، أن يعيشوه في فرح وسعادة وسرور، من هنا كان على المسلم أن يتناسى أحزانه ويتذكر أفراحه ومباهجه إذا جاء العيد أو هلّت عليه أيامه، ولا بد أن ندرك أن ثمة تمايزًا وتباينًا بين مفهوم العيد في التصور الإسلامي ومفهومه في الحضارات الأخرى، فالأمم المغايرة للأمة الإسلامية لا تعرف من معنى العيد غير اللعب واللهو، واستهلاك الوقت في تحصيل المباح وغير المباح من المتع واللذائذ والشهوات، بينما المسلم يقضي العيد وفق المنهاج الإسلامي الذي رسمه لنا رسول الله ﷺ، وهو منهاج يوضح أن الاحتفال بالعيد سنَّة طيبة أرساها الدين الحنيف للتخفيف عن القلوب والترويح عن النفوس، على عكس ما يذهب إليه الآخرون في أعيادهم من ارتكابٍ لما ترفضه النفس الزكية وتأباه الروح الطاهرة، ومن أسفٍ أن هذا المعنى قد بدأ يغزو مجتمعاتنا في ظل المناخ العولمي حيث، يظن بعضنا أن الاحتفال بالعيد شُرع في الإسلام من أجل أن يقضي المسلمون أيامهم، في الأكل والشرب واللعب وتضييع الوقت بدون ضوابط ولا محاذير.

وبالرغم من وجود وجه للصواب في الذهاب إلى التوسع في الأكل والشرب واللهو المباح خلال العيد، غير أن هناك العديد من الجوانب المهمة التي يتجاهلها من يتوقف فهمه للعيد عند حدود هذه الرؤية وآفاق هذا التصور؛ ذلك لأن للعيد في الإسلام فلسفة أكثر عمقًا وأبعد أثرًا من تلك المعاني – المتضمَّنة في الأكل والشرب واللعب واللهو المباح – التي لا اختلاف على قيمتها وأهميتها، فالتصور السليم لفكرة العيد في ديننا الحنيف يحتوي ويتضمن فلسفة ذاتية ورؤية خاصة يتميز بها الإسلام عن بقية الشرائع والفلسفات والتوجهات الفكرية، التي تحدثت عن الأعياد وأقرت للشعوب والأمم الاحتفال ببعض أيامها ومناسباتها السعيدة.

والحق الواضح لكل ذي عين وبصيرة أنه لم يتم تحديد مواعيد الأعياد في الإسلام بشكل عشوائي أو وفق أهواء النفوس البشرية، ولم يتم ربطها – أي الأعياد – بقضايا أو مسائل دنيوية تتعلق بالحياة المؤقتة التي يقضيها الناس في

(*) أستاذ الفكر الإسلامي المعاصر – طنطا.

هذه الدنيا إذ العيد لا يأتي - مثلاً - عقب نجاح المسلم في عقد صفقة تجارية تحقق له أموالاً طائلة أو أرباحاً مضمونة، ولا يأتي أيضا عقب حصول المرء على شهادة جامعية أو درجة علمية تضمن له حياة هانئة ومستقبلاً مرموقاً، إلى غير ذلك من مسائل الدنيا وطموحاتها التي كثيراً ما ينشغل بها الإنسان، نعم أجاز الإسلام للمرء أن يفرح ويسعد ويحتفل عند تحقيق ما يسره ما دام قد جاء بطريق شرعي، وما دام سيتحقق له من خلاله شيء من الكسب المادي أو المعنوي يخفف عنه مشقة الحياة ولأواءها.. غير أن هذا شيء والاحتفال بالعيد في الإسلام يعد شيئاً آخر.

فالعيد لا يرتبط في الإسلام بمناسبات دنيوية بحال من الأحوال - كما ذكرنا - بل يرتبط كل الارتباط بالنجاح في تأدية شعيرة من شعائر الله - عز وجل - أو تأدية ركن من الأركان الخمس التي بُني عليها الإسلام، من هذا المنطلق وجدنا عيد الفطر يأتي عقب تأدية فريضة الصوم، ويأتي عيد الأضحى عقب تأدية مناسك الحج من كل عام.

والعيد في الإسلام لا يتجزأ وفقاً لفئات المجتمع أو طوائفه؛ إذ من الملاحظ أن الأمم المعاصرة حاولت أن تبحث عن يوم تُكرم فيه الأم فاستحدثوا ما يسمى بـ (عيد الأم)، وهكذا (عيد الأب) و(عيد الفلاح)، إلخ من المناسبات السعيدة التي يناط بنا التعامل معها باعتبارها من باب المباحات.

والمعنى المراد هنا أن هذه الأعياد ترتبط في تلك الأمم والحضارات بفئة أو طائفة معينة من فئات وطوائف المجتمع، أو تتعلق بحدث معين من الأحداث التي مرت بها الأمة، وسجلها التاريخ لكونها من الأيام السارة والمبهجة في تاريخ البلاد، لذلك تحتفل بها طائفة معينة أو تُكرَّم فيها فئة خاصة باعتبارها مناسبة سارة لطائفة معينة أو فئة محددة من أهل البلاد، ففي عيد الأم نحتفي بالأمهات، وفي عيد الأب نحتفي بالآباء، وفي عيد الفلاح نحتفي بالفلاحين دون غيرهم.

بينما العيد كما جاء في شريعة الإسلام يشمل الأسرة كلها ويحتوي المجتمع بمختلف أطيافه ومكوناته، فهو لا يخص الأمهات دون الآباء، أو الآباء دون الأبناء، ولا يخص الفلاح دون المهندس، أو الطبيب دون المدرس لأنه عيد للجميع، لارتباطه بفريضة من الفرائض الدينية التي تؤديها الأمة كلها، فهو يوم سرور وبهجة لكل أفراد المجتمع؛ لأن العبادات لا ترتبط بالطوائف ولا تتأطر بالفئات المجتمعية، فكل أفراد الأمة مكلفون بتأديتها - إلا من سقط عنه التكليف - بهذا المعنى يكون العيد للأمة قاطبة وليس لجزء محدود منها.

وإذا كانت الأمم الأخرى تتعامل مع الأعياد باعتبارها أيام أكل وشرب واستمتاع فإن ذلك قد أدى إلى أن يحرص كل إنسان هناك على تحصيل أكبر قدر من اللذة والمتعة، وربما المنفعة خلال الأعياد دونما نظر إلى أية قيود أخلاقية أو شرعية، وكثيراً ما نسمع عن وقوع العديد من الحوادث التي تؤلم الضمير وتهز الوجدان البشري كالسرقة، أو الاغتصاب أو القتل خلال الأعياد، ولا يجب أن يُحتج علينا بأن هناك من بيننا من يقع في مثل تلك الأخطاء ويقترف مثل تلك الآثام في بعض المناسبات السارة - لدينا - كالأعياد وغيرها؛ لأن من الملاحظ أن الذين يقعون في تلك الممارسات - الشاذة وغير اللائقة من بيننا -هم في الغالب ممن تحللوا من قيمنا ومبادئنا وأخلاقياتنا

التي علمتنا إياها عقيدتنا وموروثاتنا الحضارية وطبيعتنا الشرقية، ولا مناص أمامنا من توجيه هؤلاء إلى الصواب، وتحذيرهم من الانحراف الأخلاقي وتعارض سلوكياتهم مع قيم المجتمع وآدابه.

ونستطيع التأكيد على أن الإسلام ينتهز فرصة العيد ليطرق أبواب التوافق والتآلف المجتمعي، فقد حض أهلَ اليسر من المسلمين على مراعاة الفقراء والضعفاء في هذا اليوم والعمل على إغنائهم عن المسألة، حفاظاً على راحتهم النفسية ودعماً لحالتهم المعنوية، وحرصاً على إشعارهم بالسرور والبهجة وتخفيفاً من ضغوط الحياة عليهم.

صحيح أن الدول الغربية قد حلت مثل تلك القضايا – إلى حد بعيد – بأن تولت هي بنفسها رعاية الفقراء والضعفاء حتى تغنيهم عن المسألة – وهذا أمر لم تغفله حضارة الإسلام – ليس في العيد فقط بل في كل الأوقات وكل الأيام، لكن لنا أن ندرك أن ما تدفعه تلك الدول قد لا يكون كافيا لسد حاجات أصحاب الإصابات الكبرى أو الأمراض المزمنة، وقد يعجز الواحد منهم لسبب أو لآخر عن الحصول على ما يكفيه من علاج ودواء، وهنا يأتي دور أصحاب القلوب الرحيمة الذين خاطب الإسلام أفئدتهم وضمائرهم وعقولهم.

يضاف إلى هذا أن عطف القادرين من ذوي اليسر والسعة على الفقراء والضعفاء يعزز في نفوس الأغنياء الإحساس بالانتماء إلى هذا المجتمع، ويمنحهم الإحساس بقيمتهم الإنسانية، وبمسئوليتهم أمام الله عن المحتاجين في مجتمعهم، ثم إن هذا الفعل – العطف على الفقراء – يؤدي إلى إشعار الفقير بأن في المجتمع من يسأل عنه ويشعر بآلامه ويشاركه أوجاعه، الأمر الذي يؤدي إلى دعم وتعزيز روح التآخي والمحبة والألفة بين مختلف أفراد المجتمع وطوائفه، ويساهم كذلك في القضاء على ما تسميه الأدبيات الشيوعية بالحقد الطبقي.

وثمة باب آخر يلج الإسلام من خلاله إلى تدعيم التوافق المجتمعي خلال أيام العيد، فهو قد سنَّ للمسلمين جميعاً (صلاة العيد) وهي صلاة يلتقي فيها المسلمون ببعضهم، ويصافح كل منهم الآخر سيما وأن جميعهم يكون في حالة من البهجة والسرور، الأمر الذي يساهم في إزاحة ما بينهم من مشاحنات أو خصومات، ولا يغيب عن ذهننا أن الإسلام أراد للمسلم أن يذهب إلى صلاة العيد من طريق ويرجع منها عبر طريق أخرى؛ ليلتقي بأكبر عدد من الناس ويتبادل مع الجميع التحية والسلام والتهاني بالعيد.

وهكذا يتبين لنا أن الدين الإسلامي الحنيف له رؤيته، بل فلسفته الخاصة في استغلال فرحة المسلمين بالعيد، في إيجاد نوع من التوافق بين أعضاء المجتمع المسلم، ومعلوم لدينا حِرص ديننا على زرع الألفة بين الجميع في مختلف الأحوال وكل الأوقات وليس في الأعياد فحسب؛ لأن الله – تعالى– أراد لعباده العيش في حالة من التآخي والتراحم والتواصل؛ لأن أمة يسودها الشقاق والخلاف لن تستطيع أن تبني حضارة ولا أن تصنع مجداً لأن خلافاتها ستستنزف جهدها وتنهكها وربما تساهم – ولو جزئياً – في القضاء عليها وتدميرها بعد أن ترديها المهالك، وتقضي على أسباب قوتها وعوامل تماسكها.

وحرصاً من الإسلام على تصفية الأجواء بين المسلمين في العيد شرع لهم (صلاة العيد) كما قلنا، وأخرج لها النبي ﷺ كل الناس حتى الحائض والنفساء.

ويُلاحظ المرء أن الإسلام جعل صلاة العيد سنَّة - أي نافلة - ولم يجعلها فرضاً على المسلمين لأن الفرض هو الذي يعاقب الإنسان إذا لم يفعله، ونأخذ من هذا أن الدين الحنيف لم يرد الضغط على المسلمين في العيد بكثرة العبادات كي لا ينشغل الناس عن السرور بالعبادة، أيضاً لم يُرد لهم العكس، بل أراد توازنا بين الفرح والسرور بالعيد وبين أداء حق الله في العبادة والطاعة، وتلك وسطية يتميز بها الطرح الإسلامي على ما سواه مِن الملل والمذاهب والفلسفات.

والحق أن ارتباط الإسلام بالحنيفية السمحة يعد أمراً ظاهراً لكل ذي عينين، فصلاة المسلمين إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، والنبي محمد ﷺ من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ بل إن نبي الله إبراهيم عليه السلام هو من سمى المسلمين بهذا الاسم، قال الله تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ (الحج: ٧٨).

وإذا كان العيد يؤكد ارتباط ديننا بالحنيفية السمحة على هذا النحو، فإنه يؤكد من جهة أخرى على اهتمام الإسلام بفكرة التضحية، فالمسلم يضحي في عيد الأضحى المبارك من كل عام بما تيسر له من الذبح، على النحو الذي وضَّحه الفقهاء نقلاً عن سنَّة النبي الكريم ﷺ، والمسلم يضحي في عيد الفطر المبارك بجزء من ماله في زكاة الفطر وصدقته، فيُخرج هذا الجزء من المال للفقراء والمُعْوزين سيراً على دربه ﷺ حيث ثبت أنه ﷺ قد أمر بزكاة الفطر لحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة» أخرجه البخاري.

ولقد شُرع التكبير لمدة يوم واحد في عيد الفطر المبارك بينما شُرع الاستمرار فيه في عيد الأضحى المبارك إلى بلوغ عصر ثالث أيام التشريق، ولذلك الأمر دلالة، وهي أن شهر رمضان يكون قد تم واكتمل في عيد الفطر فتكون الأمة كلها قد انتهت من أداء فريضة الصيام؛ لذا ينتهي التكبير مع صلاة العيد، أما في عيد الأضحى المبارك فيستمر التكبير إلى ثالث أيام التشريق تضامنا وتواصلاً مع حجاج بيت الله الحرام الذين يكونون في أداء المتبقي لهم من شعائر الحج، وبهذا المعنى يحدث التواصل بين المسلمين القاعدين في ديارهم والمسلمين الذين يؤدون شعائر الله تعالى في الأراضي المقدسة.

تقوم فلسفة العيد في الإسلام إذن على ارتباط العيد بالسرور والبهجة للنجاح في تأدية الفرائض لا النجاح في المسائل الدنيوية، وتؤكد العلاقة الحميمة بين الإسلام والحنيفية السمحة، وتؤكد على وحدة المجتمع والأمة، فالعيد ليس لفئة ولا طائفة ولا شعب بعينه بل لأمة الإسلام بأسرها، أينما كانت وحيثما كانت.